


February 2020

ملاحح دور الشعاع مامود دروئش فف الماممع الفلسطفنف

Bashir Faraj

Associate professor, Faculty of Human Sciences, Beirut Arab University, Beirut- Lebanon,
b.faraj@bau.edu.lb

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.bau.edu.lb/schbjournal>

 Part of the [Architecture Commons](#), [Arts and Humanities Commons](#), [Education Commons](#), and the [Law Commons](#)

Recommended Citation

Faraj, Bashir (2020) "ملاحح دور الشعاع مامود دروئش فف الماممع الفلسطفنف," *BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior*. Vol. 1 : Iss. 2 , Article 4.

Available at: <https://digitalcommons.bau.edu.lb/schbjournal/vol1/iss2/4>

This Article is brought to you for free and open access by Digital Commons @ BAU. It has been accepted for inclusion in BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior by an authorized editor of Digital Commons @ BAU. For more information, please contact ibtihal@bau.edu.lb.

ملاحح دور الشاعر محمود درويش في المجتمع الفلسطيني

Abstract

The Palestinian Nakba in 1948 had a clear impact on the Arab nation in general and on the Palestinians in particular. This has aroused the feelings of writers and poets who had a significant literary and heritage role that is characterized by the sincerity of passion and the dexterity in depicting the Nakba. The meanings that came in the poetry, and especially that of Mahmoud Darwish, who is of a Palestinian origin, have had a great impact on the Palestinian community. In his poetry, Mahmoud Darwish expresses a clear desire to form an important basis for his militant ideology, which is based upon rooting the resisting trend in the Palestinian and Arab conscience. In addition, he had a prominent role in reigniting the anger towards the Zionists as well as stirring the Palestinian uprising. The poet's mission is substantial in reviving the spirit of resistance and rooting its pillars, as it depicts a clear picture of the enlightened resistant Palestinian personality that is deeply entrenched in the Palestinian land. This has made Mahmoud Darwish's poetry a source of inspiration and a revival of resistance for a community that loves freedom.

الملخص: إنّ نكبة فلسطين في العام 1948 تركت أثرًا واضحًا على الشعب الفلسطيني بصورة خاصة، والأمة العربية بشكل عام، ما جعلها أكثر إثارة لمشاعر الأدباء والشعراء الذين أدوا دورًا تراثيًا أدبيًا مهمًا وخصبًا، يمتاز بصدق العاطفة، والبراعة في تصوير تلك النكبة، ممّا جعل المجتمع الفلسطيني يتأثر تأثرًا كبيرًا بالمعاني التي جاءت في أشعار الشعراء، وعلى رأسهم شاعر القصيدة الفلسطينية محمود درويش الفلسطيني الأصل. ففي شعره يعبر عن رغبة واضحة لتشكّل مرتكزًا مهمًا لفكره النضالي، وتقوم هذه الرغبة على تأصيل الاتجاه المقاوم في الوجدان الفلسطيني والعربي، والتي تبعث في نصوص الشاعر نيران الغضب في وجه المغتصب، وكان له الدور المهمّ والأبرز في تحريك الانتفاضة الفلسطينية ضدّ المحتلّ الصهيوني. إنّ مهمّة الشاعر واضحة في بعث روح المقاومة، وتأصيل أركانها، حيث يرسم صورة واضحة المعالم للشخصية الفلسطينية المستنيرة المقاومة، ذات الجذور الراسخة في الأرض الفلسطينية، وهذا ما جعل شعره مصدر رؤى وانبعث لحالة تجدد ومقاومة للشعب حيّ يعشق الحرية.

Keywords

Palestinians, Palestinian identity, the uprising, the Palestinian community, the Zionist occupation, the revolution, the struggle, Mahmoud Darwish. المفاتيح: الشعب الفلسطيني - الهوية الفلسطينية - الانتفاضة - المجتمع - الاحتلال الصهيوني - الثورة - العودة - النضال - محمود درويش.

1. مقدمة

إن الأدب له دور كبير في بناء الوعي الوطني، وصناعة ثقافة الأمل والصمود، ناهيك عن ثقافة الانتصار، كل هذا يضع الأدب وامتداده الثقافي والمعرفي في موقعه الصحيح في قضية فلسطين، ومعرفة الدور المنوط به كونه مرتكزاً من مرتكزات الثقافة القادرة على إحداث تغيير مهم في رسم المشهد الفلسطيني، والأدب والشعر هما مدخل له أهمية كبيرة في حياة الأمم، ومكانة الشعر في تراثنا وهويتنا الثقافية، لأن الشعر فيها أحد صانعي الوجدان والفكر، وهو من المساهمين في بناء شخصيتها الحضارية على الدوام، كما أنهما يشكلان مدخلاً إلى بيان أهمية قضية فلسطين، ومنزلتها العظيمة في نفوس أبنائها وأبناء الأمة العربية والإسلامية، ففي الزمن الذي استُبيح فيه الوطن، وتكالبت عليه قوى الاستعمار، ووضعته في دائرة الاستهداف منذ الاحتلال البريطاني في أوائل القرن العشرين الذي سلمه في منتصف القرن بعد ذلك إلى احتلال أشدّ خطورة وفتكاً وهو الاحتلال الصهيوني، كان لا بد للشعب "شعب الجبارين" أن يظل صامداً مصابراً، على الرغم من أن حالات الضعف التي تعيشها الأمة، وكان من الطبيعي أن يستنفر طاقاته وجهوده من أجل حالة استنهاض أملاً في يوم الخلاص والتحرر، لقد كانت الكلمة المقاتلة والمعبرة في طليعة هذا الاستنهاض، وشكلت القصيدة المتمسكة بعري الوطن لسان صدق علا شفاه المخلصين، وتحفظها الأجيال تسلمها إلى الأبناء إراثاً لا يتخلى عنه بأي حال من الأحوال، هذا كله دفعني إلى القول بأهمية دور الأدب والشعر في هذا الاستنهاض للشعب الفلسطيني، وكان للشعراء دور مهم في إيقاد شعلة المقاومة وتحفيز الشعب على الصمود في أرضه والتمسك بها، وإذا كانت فلسطين قد واجهت محتلاً أدمى أحلامها في دير ياسين، وشوّه فجرها في قبية وكفر قاسم، فإن الهوية الثقافية الفلسطينية قد واجهت حرباً لا تقل ضراوة عن الوجه الآخر المعروف لها، وإذا كان المؤرخون قد عرفوا عدد الشهداء في الكثير من المجازر التي ارتكبتها الصهاينة في طول فلسطين وعرضها، فإن "الكتب الشهيدة" لم يتم حصرها حتى الآن، وهكذا تعيش "الثقافة الفلسطينية" والشعر جزء منها مواجهة عنيفة مع محتلٍ شرس يواصل حربه على المثقف الفلسطيني منذ نكبة الأمس وحتى حصار اليوم. "إن كلمة "الوطن" كانت حاضرة في كثير من عناوين قصائد الشعراء، فنجد مجموعة شعرية لمحمد صالح يونس حملت عنواناً مؤلماً "لأننا بلا وطن" (عطية، 2008، ص 466)، ومن المظاهر الأدبية في جعل الوطن حبيباً لا يُنسى ما نجده عند فتح القاسم في عنوان "شامة على خذ الوطن" (عطية، 2008، ص 466).

من هنا، أن تلج عالم محمود درويش الشعري أمر ليس سهلاً لأنك تصاب بالرهبة وبالتهيب، ذلك لأنه عالمٌ غني واسع متنوع متلون، لا يستقر على مدرج واحد، فهو دائم الاغتناء، دائم التطور، عالم متقافز قفزاته سريعة وواسعة تمنح من الموروث الشعري العربي ومن الشعر المضارع عربياً وعالمياً، محمود درويش شاعر الحب، شاعر الأم، شاعر الوطن، شاعر الأرض المحتلة وشاعر فلسطين، لقد أحبّ محمود درويش وطنه، فلسطين بكل مشارعه وعواطفه، من أجل ذلك كان شعره شعلة مضئية يوقظ النائمين والغافلين من غفلتهم ويذكر بحقهم المغتصب، شعره ألهب المشاعر والعواطف الانسانية وأثار العقول، وفي الواقع لقد أشاع الشاعر الكبير وطنه، فلسطين، في كل ألفاظه ومعانيه وأبياته،

إن نكبة فلسطين في العام 1948 تركت أثراً واضحاً على الشعب الفلسطيني بصورة خاصة، والأمة العربية بشكل عام، ما جعلها أكثر إثارة لمشاعر الأديباء والشعراء الذين أدوا دوراً تراثياً أدبياً مهماً وخصباً، يمتاز بصدق العاطفة، والبراعة في تصوير تلك النكبة، مما جعل المجتمع الفلسطيني يتأثر تأثراً كبيراً بالمعاني التي جاءت في أشعار الشعراء، وعلى رأسهم شاعر القضية الفلسطينية محمود درويش، ففي شعره يعبر عن رغبة واضحة لتشكل مرتكزاً مهماً لفكره النضالي، وتقوم هذه الرغبة على تأصيل الاتجاه المقاوم في الوجدان الفلسطيني والعربي، والتي تبعث في نصوص الشاعر نيران الغضب في وجه المغتصب، وكان له الدور المهم والأبرز في تحريك الانتفاضة الفلسطينية ضد المحتل الصهيوني.

2. انزراع محمود درويش حياً وميتاً، شاعراً وإنساناً، في الوجدان الفلسطيني، في الداخل كما في الشتات

مما لا شك فيه أن شاعرًا مثل محمود درويش قد دخل من خلال شعره في الوجدان الفلسطيني، ذلك لأنه عبّر بشعره عن هذا الوجدان، وانفعالاته. فكلما دخل في ذاتيته التي يشعر من خلالها بقضيته، خاطب العالم الأكبر، فتمكّن كذلك من التأثير في العرب عموماً، وصار عالمياً يحكي الإنسان. وظهر تأثيره في الوجدان الفلسطيني من خلال نشأته، وشعره بشكل عام، والقضايا التي طرحها وهي قضايا هذا الشعب.

لقد أثر الشعر الفلسطيني في جوانب متعدّدة منه في حياة الشعب، وظهر ذلك في أشعار كثير من الشعراء الفلسطينيين، فكان شعرهم ملتصقاً بحياتهم وحياة أبناء شعبهم، مصوّراً أوضاعهم، معبّراً عن آمالهم والامهم، وبدوره الشعب تأثر بما يقوله هؤلاء الشعراء. فمحمود درويش هو أحد هؤلاء الشعراء الذين أدوا دوراً مهماً في المجتمع الفلسطيني المقاوم، فكان لشعره الأثر الكبير في صناعة الكثير من الأحداث السياسية والثقافية والعسكرية.

فالشعر له أهمية كبيرة "إذ كان عند الجاهليين في خدمة المجتمع الصغير (القبيلة) وإلى هذا يرجع الفرح العظيم بالشاعر حين ينبغ في قبيلة". (عباس، 1996، ص 140)

إن محمود درويش قدّم الكثير لمجتمعه الفلسطيني من خلال أشعاره، وتأثر المجتمع بشعره. فقد تناول قضايا تهم المجتمع الواقع تحت قهر الاحتلال وكيدته لأن واقع محمود درويش يختلف كثيراً عن واقع الشعراء العرب، هذا الواقع المؤلم - بسبب الاحتلال - بحاجة إلى التغيير أكثر من غيره، واقع يثير المجتمع كي يثور على الظلم والقهر والاحتلال.

من هنا يتضح دور الشاعر محمود درويش في المجتمع وأثره فيه. وصورة أخرى ينتزعها محمود درويش من المجتمع الفلسطيني بألفاظها ولغتها الشعبية التي تصوّر جزءاً من تقاليد المجتمع وعاداته في فلسطين. "رسالة من المنفى". تلك الميزة في لغة القصيدة الفلسطينية التي نمت بذورها بعد نكبة سنة 1948، فقبل النكبة قلما نجد مثل هذا التفاعل مع المجتمع الفلسطيني تأثراً وتأثيراً، فمن النادر في لغة الشعر الفلسطيني قبل النكبة أن نجد القصة الشعبية أو الموالم الشعبي أو الأغنية الشعبية.

قد تجد السهولة والعذوبة ورقة الألفاظ وليونتها في شعر ما قبل النكبة، وما بعدها، إنّما هذا التطور الجديد في الشعر الفلسطيني وتأثيره في المجتمع لم يبنم ويتطور في هذه الصورة إلا بعد نكبة فلسطين سنة 1948.

3. نشأته

ولد محمود درويش في 13 شهر آذار (مارس) من عام 1941م في قرية صغيرة شرقي عكا، وتدعى "البروة" القرية التي يكتب التاريخ عنها أنها قاومت الاحتلال في بواكيره وبعده سكانها الذي لا يتجاوز ألفي نسمة (الجبوسي، 1997، ص 244)، أما أسرته فأبوه سليم درويش الفلاح البسيط الذي لا يملك شيئاً (بيضون، 1982، ص 11) ومحمود درويش يشير في ديوانه إلى ذلك الموضوع في قصيدته (بطاقة هوية):

"سجّل! أنا عربي،
ورقم بطاقتي خمسون ألف،
وأطفالي ثمانية
وتاسعهم، سيأتي بعد صيف
فهل تغضب؟
سُلبت كروم أجدادي، أفلحها، أنا وجميع أولادي،" (درويش، 2010، ص 71 - 74)

قالها يوماً بصوته الهادر كالموج الغاضب، فنُقشت في قلوب الكثير، ورددتها أبناء اللجوء وحفظها كل عربي، فهي معاناة اللجوء والغربة التي كابدها محمود درويش، ونطقها باسم كل من عانى اللجوء.

4. حياته الأدبية ومسيرته النضالية

«تعلّم محمود درويش العلوم والدراسات الابتدائية في مدرسة «الأونروا» في خيام «الدامور» في لبنان»، (كاميل، 1996، ص 549) بعد العودة إلى وطنه، فلسطين، والقرية الجديدة، دير الأسد كان في الصف الثاني، يتحدث الشاعر أنه طالع الأدب العربي كثيراً وقلّد الشعر الجاهلي في محاولاته الشعرية الأولى، وقد تحدث عن هذا الموضوع في مقابلة صحفية مع مجلة العالم: لقد تأثرت بعدد من الشعراء وأنا أجاهر بذلك دائماً، أنا ابن الشعر الجاهلي وابن أبي الطيب المتنبي وابن التطور الشعري على مستوى القرن العشرين في العالم الغربي.

«خلال وجوده في فلسطين عاش في منطقة الجليل وعمل لبعض الوقت في تحرير صحيفة (الاتحاد) اليومية التي يصدرها حزب ركاك، عام 1971 غادر محمود درويش فلسطين وذهب للعيش في بيروت حيث نال شهرة واسعة بوصفه شاعر المقاومة الأول مارس درويش الصحافة في عدد من الدول العربية، بعد خروجه من بيروت عام 1982م سافر إلى باريس ثم قبرص ورأس خلال سنوات الثمانينيات وبداية التسعينيات تحرير مجلة «الكرمل» الأدبية الراقية التي توقفت ثم عادت إلى الصدور ثانية من رام الله في فلسطين في أوائل عام 1997، وعاش درويش بين عمان ووطنه» (الجبوسي، 1997، ص 244)، إلى أن وافته المنية في شهر آب 2008.

5. مؤلفاته

ألف كتباً كثيرة في الشعر والنثر (كاميل، 1996، ص 659)، أما آثاره الشعرية فتبلغ ستة وعشرين ديواناً، أهم هذه الدواوين هي: «عاشق من فلسطين 1966م، آخر الليل 1967 (ألفه بعد حرب حزيران 1967)، مديح الظل العالي 1983، أحد عشر كوكباً 1992، حالة حصار 2002، لا تعتذر عما فعلت عام 2003»، أما أهم آثاره النثرية هي: «شيء عن الوطن 1971 ويوميات الحزن العادي 1973»

6. دوره في المجتمع الفلسطيني

محمود درويش، شاعر صاغته النكبة وصقلته المأساة التي شرب مرها وذاق معها عذاب الفقر وذل العوز وغاص في مقالاتها، هذا هو محمود الذي ينحاز في كل ما صدر عنه إلى فقراء الوطن، والذي تبصّر منذ تفتحه بالرؤية الثورية، ومُنح من الموروث الفلسطيني والعربي والعالمي المنفتح، فولج عالم الشعر واتقاً مؤمناً بعدالة قضيته، يعاني ويتحدى ويسجن من أجلها، إنه شاعر مأساة، فلسطين همه وهاجسه.
يمكننا القول بأن قصائد محمود درويش الثورية، وإن كانت فلسطينية الرائحة والتوجه، إلا أنها كانت باعناً قوياً لفورة الثائرين، وشحذ عزائمهم باعتبار أنّ الثورات العربية في بدايتها كانت باسميناً تارة، وبيضاء تارة أخرى، وهي بذلك تشبه القصيدة الدرويشية التي يمثل فيها العطر واللون ملمحين رئيسيين فيها، يقول:

هي ساعة للانهيّار
هي ساعة لوضوحنا
هي ساعة لغموض ميلاد النهار
كم كنت وحدك، يا ابن أمي
يا ابن أكثر من أبٍ
كم كنت وحدك (درويش، 1987، ص 23)

ويعود الشاعر الثوري بوجهه المباشر غير المقتنع ليحرض، وإن كانت القصيدة تحمل رائحة وطعم ولون التراب الفلسطيني، لكن ما فلسطين إلا صورة رمزية لشتى البقاع العربية:
وضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى،

وقالوا: أنت قاتل
أخذوا طعامه والملابس والبيارق
ورموه في زنزانة الموتى،
وقالوا: أنت سارق
طرده من كل المرافئ
أخذوا حبيبته الصغيرة،
ثم قالوا: أنت لاجئ (درويش، 1964، ص 121)

والقضية الفلسطينية هي المنبع الخصب لمثل هذه القصائد، حيث أطلق على مجموعة من الشعراء الفلسطينيين وصف شعراء المقاومة، وقد راج المصطلح وبعض القصائد بعد هزيمة 1967، وظهور المقاومة الفلسطينية بعدها بقليل، و من أشهر الأسماء في تلك المرحلة: توفيق زياد، ومحمود درويش، وسميح القاسم، ومن أشهر القصائد التي راجت في ذلك الحين "هنا باقون" لتوفيق زيادة، و"سجل أنا عربي" لمحمود درويش، و"خطاب في سوق البطالة (يا عدو الشمس)" لسميح القاسم، وقد شغلت المقاومة والقضية الفلسطينية حيزاً كبيراً في قصائد محمود درويش، فكانت معاني الغربة وفقد الوطن، والحنين الدائم إليه، وأمل العودة، وأرض فلسطين، ذات حضور طاغ على قصائده، فكانت الدافع لدى المجتمع الفلسطيني بكل أطيافه للتسلح بهذه القصائد التي تبعث فيهم الأمل، وتوقد لديهم شعلة الثورة والمقاومة، وسنعرض في هذا البحث دور شعر محمود درويش في المجتمع الفلسطيني الذي تأثر كثيراً بأشعار محمود درويش فبدأ ابطال الانتفاضة يرددون أشعاره ويجعلونها منطلقاً وحافزاً لمقاومة الاحتلال، من خلال كلمات محمود درويش، حيث يقول في ديوانه ورد أقل: على هذه الأرض ما يستحق الحياة، ورغم أن الديوان صدر في عام 1986، أي قبل عام كامل من قيام الانتفاضة، إلا أن البعض اعتبر قصائده مقدمة للانتفاضة، وأيقونة يستعين بها جيل كامل من الشبان الفلسطينيين المحبطين رغبة في التعلق بالأمل، جاءت القصيدة للمقاومة والخروج من حالة اليأس التي كانت مسيطرة، خاصة بالكتابة عن "فلسطين دعوة. يقول درويش "على هذه الأرض ما يستحق الحياة/ على هذه الأرض سيده الأَرْض/ أم البدايات أم النهايات/ كانت تُسمَى فلسطين/ صارت تُسمَى فلسطين/ سيدي: استج، لأنك سيدي، استج الحياة"

الشعب الفلسطيني قد سرد من أرض آبائه وأجداده وهو يتذكر قضية شعبه وكان شعره يوقظ الشعب من سباته ونومه وغفلته ويدفعه إلى الثورة على الظلم والصهاينة والكفاح من أجل الحرية والوطن، إذ يقول:

أه، يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا، ليس مسافر
إنني العاشق والأرض حبيبة⁰ (درويش 1970"أ"، ص 347).
وفي موضع آخر يقول:
أموت اشتياًفاً
أموت احترافاً
وشنفاً أموت
وذبحاً أموت
ولكني لا أقول
مضي حينا وانقضى،
حينا لا يموت، (درويش 1970"أ"، ص 178)

لقد كان شعره صاعقة تنزل على المستعمرين والغاصبين وشطايا من نار تلهب جلودهم وتحرق أحلامهم عندما يقول:

وأمریکا هي الطاعون
والطاعون أمريكا
وأمریکا لا أمريكا
«أه، يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا، ليس مسافر
انني العاشق والأرض حبيبة (درويش، 1970 "ب"، ص 347)
وفي موضع آخر يقول:
أموت اشتياًفاً
أموت احترافاً
وشنفاً أموت
وذبحاً أموت
ولكني لا أقول
مضي حينا وانقضى،
(درويش، 1970 "أ"، ص 178)

لقد أحب محمود درويش وطنه، فلسطين بكل مشاعره وعواطفه، من أجل ذلك كان شعره شعلة مضيئة يوقظ النائمين والغافلين من غفلتهم ويذكر بحقهم المغتصب، شعره ألهب المشاعر والعواطف الإنسانية وأثار العقول، وأيضاً أثر في عقول الأحرار

والمسلمين، وفي الواقع لقد أشاع الشاعر الكبير وطنه، فلسطين، في كل ألفاظه ومعانيه وأبياته الأمر الذي يبقى دوماً جزءاً من شعره هو تلك العداوة الشاملة على المستويين الشخصي والجماعي، قال في مقابلة صحفية مع مجلة العالم: مهمتي حماية هوية شعبي، في كل بيت من أبيات شعره تعبير فني صادق عن مأساة الشاعر ومأساة أهله وجيله وبني قومه وهو تعبير يمس القلوب ويضر الجسم ويقفل العقل حتى هؤلاء الذين لم يسمعو شيئاً عن قضية فلسطين وكارتتها، عندما يقول: «»، نحن الآن مصابون بأزمة لا الوطن فقط ولا مكان إقامة، عندما أزمة قبور: فعندما يموت الفلسطيني الآن لا نعرف أين ندفنه، ألا يكفيننا أننا لا نملك حق الحياة في وطن ولا نملك حق الحياة في "منفي؟ وأيضاً لا نملك عنواناً بجنتنا، (الجبوسي، 1997، ص، 595)

يقول في «قصيدة الارض» كلمات يشق بها عنان السماء:

بلادي البعيدة علي،، كقلبي!

بلادي القريبة مني،، كسجني (الجبوسي، 1997، ص 226)

وأيضاً يقول:

وطني حقيبة والحقيبة وطني

ليس لي منفي كي أقول لي وطن، (درويش، 1987، ص 87)

أنا أعترف بأن محمود درويش يرى كل شيء في فلسطين ويصف كل شيء فيها، حب فلسطين محفور في صدره وقلبه إن فلسطين حبه الكبير الذي لا يضعف ولا يموت وإذا كانت الظروف والأوضاع قد أجبرته على فراقها فإن حباها كامن في صدره وبقا معه أينما كان، وفلسطين معشوقته النهائية، لقد كان محمود درويش ينظر المنصفين شاعراً ثورياً من الطراز الأول، وصاحب دور رائد ومؤثر في الفكر العربي لتوجيه بوصلته إلى عدو اغتصب أرضه وقهر شعبها، يقول المفكر حسين مروة ملخصاً نجاح شعر المقاومة في شحذ هم الشعب الفلسطيني للانتفاض في وجه المحتل الغاصب، لا سيما عند درويش، يقول إن نجاح هذا الشعر ينبع من ثلاثة أصول (مروة، 1976، بتصرف):

1، كونه نابعاً من الجماهير، فالشعراء هم أبناء هذه الجماهير فهي ربّتهم وأعطتهم الجذور، الاندماج والالتحام بين الشاعر وواقعه، وصدق التجربة والأصالة في تصوير صراع الانسان الفلسطيني، الشروط المعرفية أي المنطلق الفكري الثوري الذي يصدر عن هذا الشعر، وينفذ إلى الأعماق مؤثراً بالطاقات المتحفزة دائماً لصياغة نفسها من جديد بأشكال ومضامين متطورة باستمرار، وهذا المنطلق الفكري عند درويش هو تبصره بالنظرية الثورية، هذه النظرية التي حررت شعره وعالمه الفني من كوابيس الأوهام وجعلته يتخطى ذاته باستمرار بحيث صار محمود درويش ظاهرة شعرية جديدة بمفرده، لا فلسطينياً فحسب، ولا عربياً فحسب، بل عالمياً، وذلك بما تحمله إبداعاته من الطاقة الفائقة لتخطي الذات المستمر سواء باكتشافاته الروبوية أم بصياغاته الفنية لهذه الاكتشافات.

7. عالم محمود درويش الشعري

عند ولوج عالم محمود درويش الشعري على رحابته، فإن أول ما يجابهه قارئ ديوان "عاشق من فلسطين" هو صدق التعبير الفني في الحديث عن قضيته، قضيتنا أي عن القضية الفلسطينية، ليجعلها قضية عامة يمكن أن يحسها الانسان في أي مكان فوق الارض، وهذا التعبير الفني الصادق يأتي بسيطاً وعميقاً في آن معاً وهذه هي سحرية، شعره في "عاشق من فلسطين" حار متفجر ذو حيوية هائلة، ينتفض ويمتلئ بالرغبة في الحياة والتحرر (النقاش، 1968، ص 78).

وهو بثوريته الشعرية يرد على النعمة التي سادت الأدب الإسرائيلي الدعائي حتى أدب الأطفال منه في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات، تلك النعمة التي تحاول أن تقنع العالم، بأن العربي همجي بعيد عن الحضارة وهو انسان من درجة ثانية يقول محمود في قصيدة "نشيد للرجال":

"سنخرج من مخايبنا/ ويشتمنا أعدينا: "هلا،، همج هم عرب/ نعم! عرب/ ولا نخجل/ ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل/ وكيف يقاوم الأعزل/ ونعرف كيف نبني المصنع العصري والمنزل/ ومستشفى/ ومدرسة/ وقنبلة/ وصاروخا/ وموسيقى/ ونكتب أجمل الأشعار/ عاطفة وأفكاراً وتنميقات".

كانت الكلمة وما زالت أحد أهم الأسلحة لقتال العدو ومقاومته، فالشعر ليس وليد هذا العصر، ولا الشعراء الذين يشحذون بكلماتهم هم المقاتلين، ويثبطون بها أعداءهم فالعربي لم يزل يخوض معاركه بسيفه وقصائده على حدٍ سواء، وقد اقترن صليل السيوف بالقصائد منذ الجاهلية وحتى يومنا هذا، وإن اختلفت آلة الحرب وأطرافها وأساليبها فما زال دور الشعر قائماً فيها، وما زال الشاعر في مقدمة المقاتلين، إن لم يكن بجسده، فبصوته وكلماته، فالكلمة لم تكن يوماً مجرد حروف مرصوفة بجوار بعضها البعض، بل قد تكون في أثرها كالمدفع بيد الجندي، أو كالسيف بيد المحارب، وحين جاء الإسلام أثبت دور الكلمة في المعركة، وفي الحياة بشكل عام، فقد اقترنت الفصاحة وسحر البيان بالعربي منذ نشأته الأولى، فكان إذا نبغ شاعرٌ تحتفل به قبيلته، وتدق له طبول الفرع وتبهاه به عند القبائل الأخرى، إذ إن نبوغ الشاعر عند القبيلة أعظم درجة من الخطيب المفوه، ويكاد يكون أعظم درجة من رئيسها وفارسها، ذلك أنه يمجد قبيلته ويرفع من قيمتها عند أعدائها وعند القبائل الأخرى، ويحط من قيمة أعدائها، فهو المنافح والمدافع عنها وهو الذي يسجل لها تاريخ مفاخرها، و أمجادها وبياهي بأمثراها، و يعظم من شأنها ويهول على أعدائها، ومن أهمية الشاعر عند القبيلة أن أعداءها يتوددون إلى قبيلته مخافة من هجائه، وكان البيت الواحد من الشعر يرفع من شأن القبيلة و يحط من منزلتها، فالهجاء مفعوله أمضى من السيف وأفتك من النبال، حيث كانت القبائل في ذلك العصر تحارب أعداءها بالشعر قبل السيف، وكان الهجاء أحد سيوف الشعراء الذي تخشى القبائل أن يصيبها في مقتل، ومن أمثلة ذلك أن "بنو عبد المدان الحارثيون كانوا يفخرون بطول أجسامهم، حتى قال فيهم حسان بن ثابت:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ،،، جسم البغال وأحلام العصافير
فقالوا له: يا أبا الوليد، والله، لقد تركتنا ونحن نستحي من ذكر أجسامنا، بعد أن كنا نفخر بذلك،

وكان بنو نمير أشرف قيس ونؤابتهما، وكان الرجل منهم يفخر بذلك ويقول: النميري، ويمد صوته حتى قال فيهم جرير:

فغض الطرف إنك من نمير ،،، فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فانكسرت شوكتهم من يومئذ، ولم تعرف لهم علامة بعد ذلك،

وكان بنو أنف الناقة يسمون بهذا الاسم، يسأل الرجل منهم عن نسبه فيخفيه، ولا ينتسب لأنف الناقة، حتى قال فيهم الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ،،، ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وجاء أعرابي إلى أبي داود بن المهلب فقال له: إني مدحتك فاسمع مني، قال: قف قليلاً، ثم دخل بيته وتقلد سيفه، وخرج فقال:
قل، فإن أحسنت حكمناك، وإن لم تحسن قتلناك، فقال:

أمنت بداود وجود يمينه ،،، من المحدث المخشي والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة ،،، من الحدثنان، إذا شددت به أزرى
له حلم لقمان، وصورة يوسف ،،، وحكم سليمان، وعدل أبي بكر
فتى تفرق الأموال من جود كفه ،،، كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له: قل، فقد حكمناك، فإن شئت على قدرنا، وإن شئت على قدرك، قال: بل على قدري، فأعطاه خمسين ألفاً، فقال له
جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير؟ قال: لم يكن في ماله ما يفي بقدره، فقال له داود: أنت في هذا أشعر منك في شعرك، وأمر له
بمثل ما أعطاه.
وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد، إذ دخل عليه إبراهيم الموصلي فأنشده:

وأمره بالبخل قلت لها: اقصري ،،، فليس إلى ما تأمرين سبيل
فعالي فعال المكثرين تجملاً ،،، ومالي كما تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر، أو أحرم الغنى ،،، ورأي أمير المؤمنين جميل

فقال له الرشيد: لله أبيات، تأتينا بها، ما أحسن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها، يا غلام: أعطه عشرين ألفاً، قال:
والله، لا أخذت منها درهماً، قال: ولم؟ قال: لأن كلامك، والله، يا أمير المؤمنين، خير من شعري، قال: أعطوه أربعين ألفاً، قال
الأصمعي: فعرفت أنه أصيد لدرهم الملوك مني" (الغرناطي، 1407 هـ، ص 110)، وكان ملوك العرب وزعماءهم يدركون أثر
الشعراء في حياتهم، فكانوا يحسبون حسابهم، ويرضونهم لكسب الرضا العام، ويأخذون بأرائهم، ويعملون غالباً على كسب جانبهم،
وإلا فلا بد للحاكم من ملك أو أمير أن يأخذ الشاعر بالعقاب ليتخلص منه بطريقة يضمن فيها بعده، ونجاته من لسانه، وقد أرسل الملك
عمرو بن هند طرفة بن عبد الشاعر الجاهلي بكتاب إلى المكعبير عامله على البحرين، وعمان، يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن
طرفه هجاه بها، فتخلص منه. (الأصفهاني، 1959، ص 322)

كما روى أن الثور زوجة الفرزدق، كانت احتكمت إلى عبد الله بن الزبير في زوجها، فقال: إنا أن ترجعي مع ابن عمك
وتتزوجيه وإنا أن نقتله فلا يهجونا " وهكذا يصبح الشاعر مرهوب الجانب مما يحمل القوم على معاملته بالحسنى والعناية به بوصفه
ضيفاً خارجاً للعادة (ابن رشيقي، 1972، ص 77)، وليسيرورة الشعر على الأفواه، تجنب الأشراف مازحة الشعراء خوفاً من ألفاظ
تسمع منهم، فالشعراء أصحاب السنة حداد، على العورات موفية، وعن الخبايا باحثة، والاحتكاك المباشر بهم من أجل قضية ما قد
يولد شعراً لا يريده الأشراف، فيحاولون كبح جماح الشاعر بالقوة؛ ولكن تلك القوة لم تكن تحول دون انتشار الشعر في جانب سلبي
أو إيجابي. (بلاشير، 1973، ص 178)

لذلك حين أرسل الله سبحانه وتعالى المصطفى عليه الصلاة والسلام جعل معجزته القرآن الكريم، لأنه يعلم قدسية الكلمة عند
العربي وأثر سحر البيان عليه، وليس أبلغ من القرآن، ولا أحسن منه حديثاً وبيئاً،
جاء الإسلام، وبقي دور الشعر وأثره في المجتمع كما كان، تلهي عنه الناس مدة من الزمن، ثم عادوا إليه، وربما حث الخليفة
على تعلمه وإتقانه، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة قائلاً: مُر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل
على معالي الأخلاق وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب"، ومن الملاحظ أنه مهما تكن المكانة التي يمثّلها الشاعر في قبيلته فهو يهتم
بالتظاهرات الأساسية في حياة الجماعة، ولم تتغير منزلة الشعر عند العربي بعد الإسلام، بل ازدادت منزلته وأهميته، حيث كان
الشاعر يخرج في صفوف المعارك مع المقاتلين جنباً إلى جنب، ولا أدلّ على من قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت:
"اهجهم وروح القدس معك!"

وقد ورد أن الشاعر "الطفيل الدوسي قدم مكة، ورسول الله بها، فحذره رجال من قريش من سماع النبي -صلى الله عليه
وسلم- حتى لا يتأثر بقوله، قال الطفيل: فما زالوا بي حتى أجمعت لا أسمع منه شيئاً، ثم قلت في نفسي: وائكل أمي!،،، والله إني رجل
لييب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن
كان قبيحاً تركته، فلما ذهب إلى الكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند الكعبة فقام منه قريباً فلما رجع النبي إلى بيته
لحقه وقال: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا فر الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم
أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعتة قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك، فتلا عليه النبي شيئاً من القرآن فقال: والله ما سمعت قولاً قط
أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلم ورجع إلى دوس يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا كلهم، وهاجر معه منهم 80 بيتاً، (ابن
هشام، 1990، ص 235)

وإذا كانت قصائد الهجاء والحماسة هي الوقود الذي يُشعل الحرب قديمًا، فقصيدة المقاومة في وقتنا الحاضر هي ابنة هذه القصائد، إذ لم تعد القبائل العربية تغزو، ولم تعد تشعل الحروب بين بعضها البعض، وتهجو بعضها البعض خلال ذلك، فقد تغير وجه الحرب، وبناءً عليه تغير وجه القصيدة، ولكنها لم تمت، ولم تفقد أثرها السابق، فالشاعر العربي ما زال يجد في قلمه سلاحًا ينود به عن وطنه، ويقاوم به محتله، ويبقى من خلاله نار المقاومة مشتعلة لدى الشعب والجمهور.

والقضية الفلسطينية هي المنبع الخصب لمثل هذه القصائد، حيث أُطلق على مجموعة من الشعراء الفلسطينيين وصف شعراء المقاومة، وقد راج المصطلح وبعض القصائد بعد هزيمة 1967، وظهور المقاومة الفلسطينية بعدها بقليل، ومن أشهر الأسماء في تلك المرحلة: توفيق زياد، ومحمود درويش، وسميح القاسم، ومن أشهر القصائد التي راجت في ذلك الحين "هنا باقون" لتوفيق زيادة، و"سجل أنا عربي" لمحمود درويش، و"خطاب في سوق البطالة (يا عدو الشمس)" لسميح القاسم، ومن ضمن أبيات قصيدة سجل أنا عربي لمحمود درويش:

سجّل
أنا عربي
أنا اسم بلا لقب
صبورٌ في بلادٍ كلُّ ما فيها
يعيشُ بفرورٍ الغضبِ
جذوري
قبلَ ميلادِ الزمانِ رستُ
وقبلَ تفتّحِ الحقبِ
وقبلَ السُتُورِ والزيتونِ
وقبلَ ترعرعِ العشبِ
أبي من أسرةٍ المحراثِ
لا من سادةٍ نجبِ
وجدي كانَ فلاحاً
بلا حسابٍ ولا نسبِ
يعلّمني شموخُ الشمسِ قبلَ قراءةِ الكتبِ
وبيتي كوخُ ناطورِ
من الأعوادِ والقصبِ
فهل ترضيكِ منزلتي؟
أنا اسم بلا لقبِ

وقد شغلت المقاومة والقضية الفلسطينية حيزاً كبيراً في قصائد محمود درويش، فكانت معاني الغربة وفقد الوطن، والحنين الدائم إليه، وأمل العودة، وأرض فلسطين، ذات حضور طاغ على قصائده. هذا هو محمود درويش، شاعر صاغته النكبة، وصقلته المأساة التي شرب مرّها، وذاق معها عذاب الفقر ودلّ العوز، هذا هو محمود الذي ينحاز في كل ما صدر عنه إلى فقراء الوطن، والذي تبصّر منذ تفتحه بالرؤية الثورية، ومنح من الموروث الفلسطيني والعربي والعالمي المنفتح، فولج عالم الشعر واثقاً مؤمناً بعدالة قضيته، يعاني ويتحدى ويُسجن من أجلها، إنه شاعر مأساة، فلسطين همه وهاجسه يوظف لأجلها كل طاقاته الشعرية وكل طاقته الفنيّة، ليصل إلى القمة. يقول محمود درويش:

عندما كنت في السجن زارتنني أمي وهي تحمل الفواكه والقهوة، ولا أنسى حزنها عندما صدر السجنان إبريق القهوة وسكبه على الأرض ولا أنسى دموعها، لذلك كتبت لها اعترافاً شخصياً في زنانتني على علبة سجائر أقول فيه:

"أحن إلى خبز أمي
وقهوة أمي
ولمسة أمي
وتكبر في الطفولة يوماً على صدر أمي
وأعشق عمري لأنني إذا مت أحجل من دمع أمي"

وكنت أعتقد أن هذا اعتذار شخصي من طفل إلى أمه، ولم أتوقع أنها ستصبح أنشودة ينشدها الأطفال لأمهاتهم، فدرويش عندما كتب اعتذاراً لأمه كان في الحقيقة يكتبه على لسان كل فلسطيني إلى كل أم فلسطينية، فأصبحت هذه القصيدة وغيرها تتردد على السنة أبطال الانتفاضة، ورماة الحجارة على المحتل الغاصب.

8. نماذج من بصمات محمود درويش في تشكيل الهوية الفلسطينية

محمود درويش من أبرز شعراء فلسطين وأروع شعراء العرب المعاصرين الذين نادوا بالنهج المقاوم فإن الشعر أداة مقاومة حقيقية وفعالة في وجه الطغیان والاعتصاب الصهيوني، يقول محمود درويش في قصيدة الأرض:

أنا الأرض
يا أيها الذاهبون إلى حبة القمح في مهدها

أحرثوا جسدي ،، !
أيها الذاهبون إلى صخرة القدس
مرّوا على جسدي
أيها العابرون على جسدي
لن تمرّوا
أنا الأرض في جسد
لن تمرّوا
أنا الأرض في صحوها
لن تمرّوا
أنا الأرض، يا أيها العابرون على الأرض في صحوها
لن تمرّوا
لن تمرّوا
لن تمرّوا

في شهر آذار، في سنة الانتفاضة، قالت لنا الأرض أسرارها الدموية، في شهر آذار مرّت أمام البنفسج والبنديقيّة خمس بنات، وقفن على باب مدرسة ابتدائية، واشتعلن مع الورد والزعر البلدي، افتتحن نشيد التراب، دخلن العناق النهائي.

– آذار يأتي إلى الأرض من باطن الأرض يأتي،
العصافيرُ مدّت مناقيرها في اتجاه النشيد وقلبي،

أنا الأرض أنت
والأرض أنت
خديجة! لا تغلقي الباب
لا تدخل في الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل
وفي شهر آذار، مرّت أمام البنفسج والبنديقيّة خمس بنات،
سقطن على باب مدرسة ابتدائية،
للطباشير فوق الأصابع لونها العصافير،
في شهر آذار قالت لنا الأرض أسرارها،
أسمي التراب امتداداً لروحي
أسمي يديّ رصيف الجروح
أسمي الحصى أجنحة
أسمي العصافير لوزاً وتين
وأستلّ من تينة الصدر غصناً
وأقفه كالحجر
وأنسف دبابّة الفاتحين،
في شهر آذار زوّجت الأرض أشجارها،
وأطلّ القرنفل
وأطلّ
وفي شهر آذار رائحة للنباتات،
هذا زواج العناصر،
"آذار أقسى الشهور" وأكثرها شيقاً،
أيّ سيفٍ سيعبر بين شهيق و بين زفير
ولا يتكسر!
هذا عناق الزّراعيّ في ذروة الحب،
هذا انطلاقي إلى العمر،

فاشنتبكي يا نباتات واشتركي في انتفاضة جسمي، وعودة حلمي إلى جسدي
سوف تنفجر الأرض حين أحقق هذا الصراخ المكبل بالريّ والخجل القرويّ،
وفي شهر آذار نأتي إلى هوس الذكريات،
وتنمو علينا النباتات صاعدة في اتجاهات كلّ البدايات، هذا نموّ التداعي،
أسمي صعودي إلى النزلة التداعي،
رأيت فتاة على شاطئ البحر قبل ثلاثين عاماً وقلت:
أنا الموج، فابتعدت في التداعي،
رأيت شهيدتين يستمعان إلى البحر:
عكّا تجي مع الموج،
عكّا تروح مع الموج،

وابتعدا في التداعي
لن تمرّوا
أنا الأرض، يا أيّها العابرون على الأرض في صحوها
لن تمرّوا
لن تمرّوا
لن تمرّوا !

9. كفاحه وشعره

محمود درويش شاعر الحب، شاعر الأم، شاعر الوطن، شاعر الأرض المحتلة وشاعر فلسطين، كان مجاهداً في طليعة المجاهدين، انا اعتقد ان الجهاد أنواع متعددة لا يكون الجهاد بحمل بندقية فحسب، بل قد يكون القلم والقول انفذ من الرماح المسددة والسيوف القاطعة وأعظم من القنابل المدمرة، إذا يقول في مديح الظل العالي بصوت حار:

كم مرة تتفتّح الزهرة
كم مرة ستسافر الثورة
واللّه فينا وحدنا
واللّه فينا قد تجلي، (درويش، 1987، ص 85)
لقد كان شعره صاعقة تنزل على المستعمرين والغاصبيين وشظايا من نار تلهب جلودهم وتحرق أحلامهم عندما يقول:

وامريكا هي الطاعون
والطاعون امريكا
وامريكا لامريكا، (درويش، 1987، ص 85)

الشعب الفلسطيني قد شرّد من أرض آبائه واجداده وهو يتذكر قضية شعبه وكان شعره يوقظ الشعب من سباته ونومه وغفلته ويدفعه الي الثورة على الظلم والصهاينة والكفاح من اجل الحرية والوطن، اذ يقول:

آه، يا جُرّحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وانا، ليس مسافر
انني العاشق والأرض حبيبة، (درويش، 1970 "ب" ، ص347)
وفي موضع آخر يقول:
أموت اشتياً
أموت احترقاً
وشنقاً أموت
وذبحاً أموت
ولكني لا أقول
مضي حبنا وانقضي،
حبنا لا يموت، (درويش، 1970 "أ"، ص 178)

10. درويش يستثير في المجتمع الفلسطيني النخوة والرجولة

من خلال شعره يرفض محمود درويش الخمود والهمود المخيف، لا يريد قطعاً من الغنم دون مقاومة، لا بد من التحرك والاعتراض والمقاومة وعدم السلبية، كما يصور الشاعر محمود درويش الخانعين بأنهم يفكرون بقلوبهم، حياتهم أصبحت كلها مألوفة، ينعمون بكسلهم، لا قيمة لأوقاتهم، ولا لحياتهم، يسبرون من غير غاية يقول:

يفكرون بقلوبهم، عادوا من الأسطورة الكبرى
لكي يتذكروا أيامهم وكلامهم
عادوا على المألوف فيهم وهو يمشي فوق الرصيف
ويمضغ الكسل اللذيذ ووقته من غير غاية
ويرى الزهور كما ترى الناس الزهور، بلا حكاية. (درويش، 1970، ص424)

11. الانفتاح غير المتعارض من الوطني إلى العالمي

لقد أحبّ محمود درويش وطنه، فلسطين بكل مشاعره وعواطفه، من أجل ذلك كان شعره شعلة مضيئة يوقظ النائمين والغافلين من غفلتهم ويذكر بحقهم المغتصب، شعره الهب المشاعر والعواطف الانسانية واثار العقول وايضاً اثر في عقول الأحرار والمسلمين، وفي الواقع لقد اشاع الشاعر الكبير وطنه، فلسطين، في كل الفاظه ومعانيه وبياتته الأمر الذي يبقي دوماً جزءاً من شعره هو تلك العداوة الشاملة على المستويين الشخصي والجماعي، قال في مقابلة صحفية مع مجلة العالم: مهمتي حماية هوية شعبي، في كل بيت من أبيات شعره تعبير فني صادق عن مأساة الشاعر ومأساة أهله وجيله وبنو قومه وهو تعبير يمس القلوب ويضر الجسم

ويقول العقل حتى هؤلاء الذين لم يسمعون شيئاً عن قضية فلسطين وكرانتها، عندما يقول: «،،، نحن الآن مصابون بأزمة لا الوطن فقط ولا مكان إقامة، عندما أزمة قبور، فعندما يموت الفلسطيني الآن لا نعرف أين ندفنه،،، ألا يكفيننا أننا لا نملك حق الحياة في وطن ولا نملك حق الحياة في منفي؟ وأيضاً لا نملك عنواناً بحثتنا يقول في «قسيمة الارض» كلمات يشق بها عنان السماء، (كامبل، 1996، ص 25)

بلادي البعيدة علي،، كقلبي!
بلادي القريبة مني،،، كسجني، (الجبوسي، 1997، ص 226)
وأيضاً يقول :
وطني حقيبة والحقيبة وطني
ليس لي منفي كي أقول لي وطن، (درويش، 1987، ص 87)

انا اعترف بان محمود درويش يرى كل شيء في فلسطين ويصف كل شيء فيها، حب فلسطين محفور في صدره وقلبه، ان فلسطين حبه الكبير الذي لا يضعف ولا يموت وإذا كانت الظروف والايوضاع قد اجبرته على فراقها فان حبها كامناً في صدره وبقا معه اينما كان، وفلسطين معشوقته النهائية إذا يقول:

وميزاتي على رأسي عقلاً فوق كوفية
وكفي صلبة كالصخر،،،
تخمش من يلامسها
سجّل!
أنا عربي
فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم ، (درويش، 1964، ص 73)

اصبحت قصائد محمود درويش داخل الأرض المحتلة حجارة الانتفاضة والثورة علي أيدي الفلسطينيين، أجبرت العدو علي أن يبادر إلى نفيه ونفوه إلى خارج الوطن وكانت قصائده تلتهم بالنضال وتبشر بالثورة والعودة، يقول في «أوراق الزيتون» مخاطباً أمه، (درويش، 1964، ص 33)

يا أمنا! انتظري أمام الباب، إنا عائدون!
ماذا طبخت لنا؟
فإننا عائدون،

من أجمل أشعاره التي ينهي الناس عن السفر ويحذّرهم ويدعوهم إلى المقاومة والصمود ضد الصهاينة المحتلين على لسان أبيه إذ يقول:

وأبي قال مرة
حين صلى على حجر
غضّ طرفاً عن القمر
وأخدر البحر،،، السفر!
وأبي قال مرة
الذي ماله وطن
ما له في الثرى ضريح
،،، ونهاني عن السفر!

خلاصة القول انه شاعر قضية، شاعر مأساة، شاعر نكبة وشاعر فاجعة، نحن نحس من قصائده ان الحبيبة والوطن شيان توأمان وليست الحبيبة شيئاً والوطن شيئاً آخر، لذلك فالحب عنده يرتبط كل الارتباط بوطنه وقضيته ودرويش كثيراً ما يمزج بين الحبيبة والوطن، ويجعل منهما شيئاً واحداً هو يتحدث في بعض الاحيان عن الحبيبة والام والحب والبرتقال والزيتون و،،، في الواقع يعبر عن وطنه، فلسطين وعندما يتحدث عن اللص والذئب والسرطان و،،، يعبر عن الغاصبين الظالمين الإسرائيليين اشعاره ذات اثر بليغ في الانتفاضة وفي الواقع هو شاعر يوقظ الناس من غفلتهم ونومهم بشعره وفي شعره حديث عن الوطن والشعب الفلسطيني والصهاينة المحتلين اي شعره يدور حول فلسطين والانتفاضة في الواقع ذات اثر بليغ في الانتفاضة وفي الواقع هو شاعر يوقظ الناس من غفلتهم ونومهم بشعره وفي شعره حديث عن الوطن والشعب الفلسطيني والصهاينة المحتلين اي شعره يدور حول فلسطين والانتفاضة والاحتلال وكما يقول الآخرون ان محمود درويش شاعر الارض المحتلة، شاعر المقاومة والاحتلال وكما يقول الآخرون ان محمود درويش شاعر الارض المحتلة، شاعر المقاومة والاحتلال وكما يقول الآخرون ان محمود درويش شاعر الارض المحتلة، شاعر المقاومة

تَضِيْقُ بِنَا الْأَرْضُ أَوْ لَا تَضِيْقُ
يُبيِّن في قصيدته "سأقطع هذا الطريق" بكل وضوح أن عليه أن يسير كل الخطوات اللازمة من أجل السيطرة على الحريه، محور شعره -الوطن (الأليف) - يظهر بشكل بارز في قصائد محمود درويش، ويتطور مع مرور الوقت من مساحة جغرافية إلى فضاء حر تتوحد فيه الأصوات الشعرية مع أسس الوطن، يقول الشاعر بإصرار واضح: "سأقطع هذا الطريق الطويل، وهذا الطريق الطويل، إلى آخره،،،، تَضِيْقُ بِنَا الْأَرْضُ أَوْ لَا تَضِيْقُ، سنقطع هذا الطريق الطويل"، عن طريق التحول من الأنا الفرد إلى نحن الجماعة يتحالف محمود درويش مع جمهوره، مع شعبه، مع اللاجئين في أي بقعة من الكرة الأرضية، ويخلق بالتالي هوية مشتركة تتصدى للمأساة، النظر الى البعيد - عاشق من فلسطين - آخر الليل - العصفير تموت في الجليل.

12. مراحل شعره

لقد تناول الباحثون قصائد درويش لأهميتها في مسيرة الشعر العربي القومي بالدراسة المعمقة ووجدوا أن شعره مر بمرحلة:

المرحلة الأولى: تميزت بتأثره بغيره من الشعراء وهذا مانجده في ديوانه " عصفير بلا أجنحة" الذي صدر عام 1961.
المرحلة الثانية: وتميز فيها الرقة والثقة بالنفس والفخر بعروبته كما في قصيدته:

سجل أنا عربي
ورقم بطاقتي خمسون ألف
وأطفالي ثمانية
وتاسعهم سيأتي بعد صيف
فهل تغضب،، ؟!

المرحلة الثالثة: وفيها اكتمل نضج شعره وبلغ مراحل متقدمة من اكتمال العبارة وجماليتها وصدقها ورهافتها كما في دواوينه:
عاشق من فلسطين - آخر الليل -العصفير تموت في الجليل/
المرحلة الرابعة: وصل شعره إلى مرحلة متميزة وثرية كما نلاحظ ذلك في ديوانه /أحبك أو لا أحبك - انتحار العاشق/ ،
المرحلة الخامسة: أصبح شعره رقيقاً غنائياً ملحمياً كما في ديوانه: /أعراس - حصار لمدائح البحر/،
المرحلة السادسة: أشعاره تنزف حزنا وأبعادا فلسفية حائرة وتميل إلى قصائد النثر كما نجد ذلك في ديوانه /لماذا تركت الحصان وحيدا/،
حيث تطالعنا حوارية رائعة غير مسبوقة في شعرنا العربي وتحمل معاني الانتماء لأرض فلسطين وحمية العودة للوطن والذكريات التي لا تزول أبداً وهي تجري بين ابن وأبيه:

،،، لماذا تركت الحصان وحيداً
يا أبي،
لكي يؤنس البيت يا ولدي
فالبيوت تموت إذا غاب سكانها،
متى يا أبي نعود
غداً ،، ربما بعد يومين يا بني ،

أما في قصيدته الملحمية الطويلة /أحمد الزعتر/ فإن محمود درويش يأخذنا بعيداً إلى مآهات الاغتراب والانكسارات والأفكار الفلسفية العميقة، لقد صدرت عدة مطبوعات تثنى شعره ومن أشهرها:
- كتاب /محمود درويش،،، حالة شعرية/ للناقد صلاح مفضل تناول فيه العديد من القضايا الحياتية والشعورية التي شككت تجربة الشاعر ويرى أن بيئة الشاعر لها أثرها في قصائده وأن تنقلاته العديدة ما بين رام الله وعمان كانت تسبب له الحصار النفسي والقلق وهو يرى عبثية المفاوضات وعدم جدواها وابتلاع الوطن الفلسطيني، ويتحدث الناقد عن المرحلة الرومانسية والتأثر بشعر نزار قباني ثم عبوره إلى عتبات الحداثة والتجريد وصولاً إلى القصيدة الدرامية.
- كتاب /موت التاريخ، منحى العدمية في أعمال محمود درويش الأخيرة/ للناقد أحمد دلبناني الذي يركز في دراسة على مقولة محمود درويش: /لا تكتب التاريخ شعراً،،، فالسلاح هو المؤرخ/ التي أسست لانعطافه تراجمية في تجربة الشاعر الأخيرة والتي اتسمت بالعدمية المطلقة والسأم الوجودي وكانت قصائده الأخيرة في مواجهة مباشرة مع الموت حيث يقول :
انكسر النشيد

وشخّ سهُم طائش وجه اليقين،

13. الخاتمة

محمود درويش الشاعر الثوري أدار ظهره نهائياً للجمل الغنائية وراح يتلمس حواف اللغة بدفق صوفي حيناً وسريالية حيناً آخر كي يشفى من داء التاريخ/ نخلص للقول: إن الشاعر محمود درويش مقاوم عنيد بروحه وضميره أسس بقصائده نهجاً مقاوماً

للمحتل الصهيوني الذي مهما دمر وقتل وبنى المستوطنات فإن وجوده عابر وليس أمامه سوى الانصراف من حيث أتى ،، ونقرأ ذلك في مقاطع من أروع قصيدة عربية كتبت عن فلسطين :

أيها المارون بين الكلمات العابرة
أن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا
ولتموتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا
فأخرجوا من أرضنا
من برنا ،، من بحرنا
من قمحنا ،، من ملحنا ،، من جرحنا
من كل شيء ،، واخرجوا
أيها المارون من بين الكلمات العابرة.
أخيراً إن لشعر محمود درويش أثراً كبيراً ودوراً مهماً في مسيرة النضال الذي خاضه ويخوضه الشعب الفلسطيني.

المصادر والمراجع

- ابن رشيق. (1972). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، بيروت: دار الجيل، الطبعة الرابعة، المجلد الأول.
- ابن هشام. (د.ت.). *سيرة ابن هشام*، بيروت: دار الكتاب العربي، المجلد التاسع.
- الأصفهاني، أبو الفرج. (1959). *الأغاني*، بيروت: دار الثقافة.
- بلاشير، ريجي. (1973). *تاريخ الأدب العربي*، دمشق: وزارة الثقافة.
- بيضون، حيدر توفيق. (1982). *محمود درويش شاعر الأرض المحتلة*، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجيوسي، سلمى الخضراء. (1997). *موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر*، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- درويش، محمود. (1964). *أوراق الزيتون*، بيروت: دار العودة.
- درويش، محمود. (1970 "أ"). *آخر الليل*، بيروت: دار العودة.
- درويش، محمود. (1970 "ب"). *حبيبي تنهض من نومها*، بيروت: دار العودة.
- درويش، محمود. (1987). *مدىح الظل العالي*، بيروت، دار العودة، الطبعة الثالثة عشرة.
- درويش، محمود. (2010). *ديوان محمود درويش*، المجلد الأول، بيروت: دار العودة.
- عباس، إحسان. (1996). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*، بيروت - لبنان: دار الثقافة، ط 5.
- الغرناطي، ابن عاصم أبو بكر. (1407 هـ). *حدائق الأزهار*، الأردن: دار المسيرة.
- كامبل، روبرت ب. (1996). *أعلام الأدب العربي المعاصر*، بيروت: مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر.
- مروة، حسين. (1976). *الموقف الثوري في الأدب*، بيروت: منشورات دار الفكر العربي.
- النقاش، رجا. (1968). *أدباء معاصرون، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.*